ميكافيللي العصر

ـ «صدقيني يا أمي.. أنا واثق أنه هو..»

ـ «وكيف تأكدت أنه هو..»

ـ «من إصبعيه المبتورين فى قدمه اليمنى. والتكتم الشديد الذى يحيطونه به، وحالة الطوارئ التى غرق فيها المستشفى.. والكبار الذين يزورونه.. والتليفون الذى جاءه من الرئاسة»

ـ «الإصبعان المبتوران هما أصدق إشارة أتى لك بها صديقك الطبيب.. فأىّ ساق بتروها له؟»

ـ «اليسرى.. تهشمت بدفعات مركزة من المدفع الرشاش..»

ولم تمض أيام قليلة حتى كانت شائعة محاولة اغتيال البرلمانى الشهير السيد النحال تملأ البلد.. ولم تفلح محاولة التكتم على هذا الحادث فى منع التحدث عنه باستفاضة، بل والاستعانة بالخيال فى تبرير اتجاه الرصاص بكثافة على ساقة اليسرى دون أن ترتفع رصاصة واحدة إلى قلب المذكور فتقضى عليه وهو يجلس فى سيارته خلف السائق.. فهناك من قال إن المهاجم كان منبطحًا وركز رصاصته على باب السيارة، وهناك من تخيل ارتماء المجنى عليه فى قاعها فحمى رأسه وصدره باقى جسده من الرصاصات الناقمة.

وبغباء متكرر تم نشر خبر عابر حول ما حدث للسيد النحال من كسر فى ساقه إثر سقوطه من مرتفع وهو يمارس لعبة الجولف فى منتجع القطامية، وكالعادة اعتبر القراء أن هذا التخفيف الإعلامى الساذج ما هو إلا تأكيد لصحة ما أشيع عن محاولة اغتياله .

أما عن الجناة، فلم يعرف أحد من الناس عنهم شيئًا.. ولكنهم وثقوا أن هذا الحادث

ليس إرهابيًّا وإلا كانت الحكومة قد قامت بتوظيفه على خير وجه.. إذن، فهو انتقام شخصى.. وممن؟.. من المؤكد أنه من واحد من عداد العشرات بل المئات الذين عبث النحال بأرزاقهم أو بأعراضهم.. أو بمصائرهم..

وبتوجه أكثر غباء وبعد مرور أكثر من شهر على الحادث نشروا خبرًا حول القبض على شاب بتهمة محاولة اغتيال إحدى الشخصيات المهمة. الشاب ينحدر من ظهر أب كان يعمل إسكافيًّا ومات فى حادث غامض.. أما الشاب نفسه، فهو يعمل حارسًا ليليًّا بإحدى القرى السياحية بمدينة دهب.

ولم يكن من الصعب على أىّ متابع لبرنامج السيد النحال الربط بين إقامته فى مدينة دهب على مدى الأيام الثلاثة السابقة لمحاولة اغتياله وبين القبض على هذا الشاب . وأنها لم تكن إقامة ترفيهية بقدر ما كانت بغرض عقد لقاءات عمل مع شخصيات يهودية فى مجال السياحة .

أما ما قيل عن أن الجانب اليهودى أسرع بشريكهم إلى تل أبيب لمحاولة إنقاذه وأنهم أعادوه إلى مصر بساق واحدة، فإن القلة الذين تأكدوا من ذلك كان من بينهم الدكتور ياسر حلمى عبد الباقى عبر صديقه طبيب المستشفى (الذى استقبل المجنى عليه): فقد قال له:

ـ «قاتل أبيك يا ياسر جاءنا وقد ترك شلوًا من أشلائه فى مكان ما.. من حاول قتله لم يفلح فى الإجهاز عليه..»

ثم داعبه قائلًا:

ـ «ألا تتمنى أن أجهز عليه أنا؟»

تعلقت ابتسامة مريرة فوق شفتى خميسة عفيفى وهى تسمع ولدها يطلق دعابة صديقه بمرارة لا يتبعها بما تفرضه من ضحك أو ابتسام وإنما غرق فى صمت حزين، فأيقنت أنه سرح فى ذكرى أبيه الذى خطفوه ذات ليلة من أمامه، ثم أعادوه فى صندوق خشبى.

* * *

وعملًا بأصول اللياقة السياسية، وحتى لا يبدو اهتمامه مركزًا على رجال لجنته فقط، تحرك السيد جمال مبارك إلى المستشفى لزيارة السيد النحال أحد أهم رجال النظام، فسوف يفهم الناس من هذه الزيارة المعلنة أنه لا فرق بين شباب اللجنة عنده وبين العجائز فى كتلة الحرس القديم الذين يصفهم كتاب صحف المعارضة «بالعجزة».. لا بالعجائز.. لطول جلوسهم غير المفيد على المقاعد العلية لأكثر من ربع قرن من الزمان.

وقد رتبت الزيارة بحيث لا تطول عن عشر دقائق تكفى لدخوله المستشفى وخروجه منها والتقاط عدة صور تبثها صحف الغد بما يحيطها من تعليق مناسب.

قيل ذلك للسيد النحال، وكان للثعلب العجوز رأيه الخاص وترتيبه المعد سلفًا، فقد غمغم بصوت خفيض:

ـ «برنامجكم ملك أيديكم.. أما زائرى، فهو ملك يدى»

ثم قال لنفسه وهو يرنو عبر الشباك إلى حديقة المستشفى:

ـ «يبدو أن الرئيس القادم الذى أسميته أنا «بنعمة المستقبل» يريد أن يبدو عطوفًا وشفوقًا وكريمًا مع رجال والده «الكسر» كما يطلق عليهم فى جلساته الخاصة.. ويبدو أن المطلوب منى أن أبدو «كومبارسًا» فى خلفية صورة تتركز أضواؤها على نجم ساطع.. ولكن هيهات..»

دلف جمال مبارك من باب الجناح الفخيم نحو لاعب الجولف العتيد السيد النحال وأقبل نحوه بابتسامة واسعة.. وبدا أن مريضه ـ ذا الساق الواحدة ـ معافى وهو يبادله الابتسام من فوق سريره.

وفيما بعد قال المرافقون لجمال مبارك إنهم شاهدوا السيد النحال يهب واقفًا لمصافحة زائره الكبير. ولأن الجلباب الأبيض وعباءته الحريرية سترا ساقاه حتى الأرض فلم يتبين لهم مكان عورته الجديدة. إلا أنهم فوجئوا بعد التقاط الصور المطلوبة بالسيد النحال يرفع يمناه فى مواجهتهم بالتحية والشكر قائلًا لهم:

ـ «شكرًا لكم.. من فضلكم اتركونا على انفراد لبعض الوقت»

ثم أشار إلى كرسى قريب من سريره قائلًا لزائره الكبير:

ـ «تفضل ياباشا..»

ثم قالوا إن «بعض الوقت» الذى تمناه مريضهم العجوز امتد إلى أكثر من ساعة كاملة.. وصاروا لا يدرون ما الذى دار بينهما فى هذه الساعة.

* * *

بادر السيد النحال فكرر ترحابه بضيفه الكبير بعد أن أغلقوا عليهما الباب.. وكانت ملامحه تطفح بخلطة مثيرة من الود والامتنان والأسى والحب والحزم.

وقبل أن يبحر به فيما أجلسه من أجله كان جمال مبارك المدجج بكل سيماء القوة والنفوذ يراوغه إحساس غريب بأنه يجلس الآن فى حضرة عدد من الرجال لا رجل واحد.. رجال ذوى سحن مختلفة.. كلّ سحنة تتماهى مع سحنة أخرى لرجل مختلف.. الفارس، والمعلم، والدجال، والناصح، والقواد، والقديس.. وهذا ما يثير العجب..

ـ «ما كلّ هؤلاء الرجال؟!!»

هكذا همس جمال مبارك لنفسه قبل أن يعطى أذنيه لأول المتحدثين من هؤلاء الرجال.. فالمريض هو الذى يتحدث الآن:

ـ «لو كنت أعلم يا باشا أن بتر ساق واحدة من جسدى سوف تأتى بك إلى هنا لبادرت ببتر ساقى الاثنتين منذ زمن لأتمتع بزيارتين»

وأمام هذه التحية الرقيقة المغالى فيها ظهر الخجل على وجه الضيف الكبير، فقال:

ـ «لا بأس عليك.. كلنا حزانى من أجل ساقك..»

وقفز الرجل الثانى مسرعًا بقول جديد:

ـ «كل أشلائى فداء لك.. ولا تستحق حزنك.. فكم يكون البتر أحيانًا أجدى من الزرع إذا جاء فى موعده.. فصديقى طاهر زين الدين تأخر فى بتر ساقه المسرطنة، فتسرطن باقى جسده، ومات فى عزّ شبابه»

ثم قفز الرجل الثالث بقول آخر:

ـ «وخوفًا من أن يكون هذا مصيرى، فقد تمسكت بفرصة الاختلاء بك لأقدم لكما نصيحتى»

واجهه السيد جمال مبارك بسؤال فورى:

ـ «تقدم لنا؟.. تقصد من.. ومن؟..»

وقفز الرجل الرابع بجسارة ناطقة: «أنت.. أقصد سيادتك.. والسيد الوالد.. فخامة الرئيس»

كرر السيد جمال مبارك سؤاله:

ـ «أتقدم لنا نصيحة..؟.. أىّ نصيحة؟»

واستمر الرجل الرابع ممتطيًا صهوة الجسارة:

ـ «أجل.. وقبل أن أقدمها فسوف أسألك سؤالًا»

ـ «تفضل..»

وبرز الرجل الخامس: «المعلم» بسؤاله:

ـ «هل قرأت كتاب «الأمير» لميكافيللى؟.»

رفع جمال مبارك حاجبيه إلى أعلى علامة للدهشة، فواصل المعلم:

ـ «من المؤكد أنك قرأته ، وتعلم أن صاحبه نصح أن يقرأه الأمراء والملوك وأبناؤهما قبل أن يقرأه العامة.. وأنت، أقصد سيادتكم يا ولدى ملك البلاد القادم ولا بد أن تعى ما يحيط الملك من فتن، ولابد أن تضع يدك على كل ما يحبط هذه الفتن من نصح ومشورة.. وهذا الكتاب يجعلك تفهم ذلك درءًا لسقوط العرش وتثبيتًا لقواعده»

وصمت الرجل «المعلم» قليلًا قبل أن يواصل حديثه بصوت متهدج:

ـ «ولولا الأحداث التى زحفت نحوك بسوء الحظ لكان فيما كتبه ميكافيللى الكفاية.. ولهذا فنحن بحاجة إلى مخرج لم يفكر به ميكافيللى أو عمل حسابه.. وهو معذور، فللرجل عصره ولنا عصرنا.. ففكرة الاستفتاء لم ترد فى كتابه لأن الغرب لا يعرفها.. أما فكرة الجمهورية الملكية، فلم تخطر على باله لأنه لا يعرف إلا شيئين لا ثالث لهما: الجمهورية والملكية..»

ولاحظ «المعلم» أن ضيفه الكبير صار مشدود الانتباه وهو يتفحص عباراته باعتدال وتأن قبل أن يسأله: «الجمهورية الملكية.. ماذا تقصد بذلك؟»

وكان ردُّ المعلم جاهزًا:

«الجمهورية السورية.. أول جمهورية ملكية فى التاريخ»

وفهم جمال مبارك ما يقصده هذا الثعلب العجوز، فاعتدل فى كرسيه وواجهه بسؤال حازم:

ـ «قلت الآن شيئًا عن سوء الحظ الذى زحف نحوى، ما الذى تقصده؟»

ـ «آآآآآه..»

قالها السيد النحال بصوت عميق وبمعنى أن هذا السؤال هو مربط الفرس، وسارع بالقفز فوق جواد الرجل السادس «الصديق المحزون» وحزنه كما بدا من حديثه سببه أن الفرصة قد ضاعت على مصر أن تكون هى الرائدة فى هذا الاتجاه الذى استشرى فى ضمائر الرؤساء العرب.. فالقذافى يجهز ولده ليرث الحكم.. وعلى عبد الله صالح يفعل ذلك فى اليمن، وصدام حسين فى العراق.. وقبلهم حافظ الأسد فى سوريا.. أما عن عرش المغرب وعرش الأردن، فإن توريثهما لولى العهد أمر مسلم به بحكم ما هو كائن..

وبعد أن دار حول نفسه بهذه المقدمات سارع بالدخول فى عمق السؤال، فقال ببعض لأسى:

ـ «إن الموت المفاجئ لحافظ الأسد مكّن لولده بشار أن يرث الحكم بسيناريو محكم سبقنا به السوريون فى مضمار التوريث»

بدا على السيد جمال مبارك أنه بحاجة إلى مزيد من التوضيح، فتخلى السيد النحال بمزيد من السرعة عن غموضه، وعلق بصره بالسقف كمن يبحث عن شىء ما، ثم راح يتحدث دون أن يحول بصره عن السقف:

ـ «قد تستاء من قولى، ولا لوم عليك، فسوء الحظ الذى أقصده هو أن حافظ الأسد تلقى قدره فى الموعد الخطأ بالنسبة لنا، فأفسح الطريق لولده بشار، وأغلق الطريق علينا..»

ظهر الانزعاج على وجه جمال، ثم لاحت منه ابتسامة بها مرارة وسخرية:

ـ «تقصد أن حافظ الأسد كان يجب أن ينتظر حتى يسبقه أبى فى الرحيل و....»

أسرع السيد النحال فقاطع ضيفه الكبير قبل أن يتمادى فى تعليق قد يحرجه، فقال:

ـ «.. وكنا سنصطف لمبايعتك ، ومنطلقنا فى ذلك هو الحرص على الانتقال الهادئ للسلطة.. واثقين أن مشاعر الحزن على رحيل الرئيس كانت كفيلة بقمع أىِّ رأى مخالف

لهذا الانتقال..»

ثم راح يوضح كيف أن ما حدث فى سوريا لم يلق ارتياحًا لدى شعوب الجمهوريات العربية عكس ما كان سوف يحدث لو كانت فكرة التوريث خرجت من مصر.. فالعرب لم يعتادوا التشبه بدولة أخرى غير مصر لكونها دولة رائدة فى كافة المجالات.. ومن هنا يمكن القول إن ثقافة التوريث ولدت مشوهة لأنها لم تصنع فى مصر.

ـ «انظر مثلًا إلى آخر بضاعة صدرتها مصر للعرب.. بضاعة الصلح مع إسرائيل.. ثم بضاعة التطبيع معها.. هذه البضاعة لم يكن من الممكن تصديرها من دولة أخرى غير مصر.. صحيح أن الصدمة جعلتهم يترنحون من هول المفاجأة، لكنهم الآن يلهثون سرًّا أو علنًا خلف إسرائيل.. الأردن فعلت ذلك.. وقطر.. أما الإمارات والسعودية، فيفعلان ذلك على استحياء..»

هزّ جمال مبارك رأسه وابتسامة السخرية ما زالت على حالها معه:

ـ «إذن، فعدم تمتعنا بأسبقية التوريث هو الذى أحزنك؟»

ـ «ليس هذا فقط..»

ـ «أهناك شىء آخر..»

ـ «أجل.. الباب العالى.. الأستانة الجديدة.. أمريكا»

ـ «وماذا عن هذه أيضًا»

ـ «اللغط الذى تثيره حول الإصلاح السياسى والديمقراطية وتداول السلطة وكل هذه الترهات التى تقفز بها علينا «كونداليزا» حتى إنها أخذت تداعب أيمن نور حينًا والإخوان المسلمين أحيانًا»

ابتسم جمال مبارك لجسارة هذا الرجل المحير وراح يتأمله بدهشة وهو يقول لنفسه متسائلًا:

ـ « أمن أجل هذا ظل هذا القواد متربعًا على عرشه طوال هذا الوقت؟»

ثم التفت إليه باهتمام وسأله: «وماذا ترى فى ذلك؟»

فأجابه السيد النحال بسرعة فائقة:

ـ «نفعل ما تفعله أمريكا.. نتشبه بها.. نحذو حذوها.. نسير على طريقتها ولكن

بطريقتنا.. نداعبها كما نداعب الناس هنا.. نعقد انتخابات رئاسية.. نحصل على الولاية الخامسة بشكل ديمقراطي، نبحث عن مرشحين يتنافسون على مقعد الرئاسة ضد الرئيس.. مرشح الحزب الوطني.. أليس هذا ما يريدونه؟..»

وتوقف السيد النحال فجأة عن الحديث، ودقق النظر فى وجه زائره ببعض الأسى:

ـ «سيادة الرئيس أضاع فرصة ذهبية عندما رفض نداءات دكاكين المعارضة ومطالبهم بتعديل الدستور..»

ثم خبط ظاهر يمناه بباطن يسراه متحسرًا:

ـ « يا سلام لو كان قد طاوعهم فى مطلبهم هذا.. يا سلاااام.. كان سجل هدفًا فى المقص.. لا أدرى لماذا رفض طلبهم بعنف شديد؟»

ثم هدّأ من نبرة صوته مكملًا:

ـ «على كل حال حصل خير..»

ثم رفع رأسه إلى السماء وأسبل جفنيه فى خشوع، وقال:

ـ «أنا استخرت الله.. وجاءتنى البشرى.. ووجدت أن تعديل المادة٧٦ من الدستور هو الحل.. فعندما نجعل اختيار رئيس الجمهورية بالانتخاب وليس بالاستفتاء سنكون قد تخلصنا من عورة دستورية شوهت ديمقراطيتنا لأكثر من نصف قرن.. وقد زاد تفاؤلى عندما اكتشفت أن السيد الرئيس أطال الله فى عمره ـ بلغ هذا العمر ٧٦ عامًا ـ سبحان الله.. مفارقة عجيبة.. أليس كذلك..؟..»

رمقه جمال مبارك بعين فاحصة:

ـ «هل هذا ما انتهت إليه استخارتك؟»

فرد مسرعًا:

ـ «وهذا ما أبقيتك هنا من أجله.. فقل لفخامة الرئيس أن يلقى بثعبانه الأكبر ليبتلع كلّ الثعابين الهزيلة.. ويفاجئ الرأى العام فى الداخل والخارج بشطب هذه المادة الملعونة.. وسوف يحسب له أنه الرجل أو الرئيس الذى قام بفعل لم يسبقه إليه غيره..»

اعتدل جمال مبارك فى مواجهة السيد النحال، ثم سأله:

ـ «ألم تواتك الفرصة لعرض هذا المشروع بنفسك على سيادة الرئيس؟»

ـ «والله يا باشا فكرت فى ذلك.. ولكن أيناها فرصة الاختلاء بسيادته.. وكم تمنيت أن أتمكن من هذه الفرصة قبل سفرى إلى الخارج»

ـ «ألديك مشروع بالسفر إلى الخارج؟»

ـ «نعم.. إلى أمريكا.. رتبت زيارة إلى مركز مشهور لتركيب الأطراف الصناعية.. هناك يصنعون سيقانًا تنبض بالحياة، وسوف أواصل لعب الجولف بساقى الجديدة بأزيد من كفاءتى المعروفة.. على فكرة.. موضوع استبدال الاستفتاء بالانتخاب سوف يثير ضجة.. وسوف تجد المعارضة فرصتها فى تشويه الفكرة، وسيقولون إنها ترتيب مدبر لتمكين نجل الرئيس من مقعد الرئاسة مستقبلًا.. ولكننا سنرد عليهم ونسفه أقوالهم ونواجههم بما يستحقونه»

ابتسم جمال مبارك قائلًا:

ـ «هم يفهمون أن المعارضة معناها أن تعارض على طول الخط.. المعارضة فقط حبًّا فى أن تعارض لا أن تعرض وجهة نظرك»

وبدا للسيد النحال أنه جذب ضيفه إليه، وأنه نجح فى الوصول إلى نقاط التقاء ، فها هو فى عباراته الأخيرة يؤيده فى موقفه من المعارضة.. ومن هنا فقد انفتحت شهيته لمزيد من البوح فسارع بامتطاء صهوة حصانه الرابح..

ـ «اسمع يا أستاذ جمال.. مقعد الرئاسة فى انتظارك إن آجلًا أم عاجلًا، ولو نظرت إلى الأمور بشكل عملى فسوف ترى أن فخامة الرئيس بعد أن يحصل على ولايته الخامسة بانتخابات ديمقراطية تنافسية فسوف يتمنى أن يهنأ باستراحة المحارب وأن يسلم الراية لمن هو أحق بها، ولن يجد أفضل منك وعيًا وأمانة وإخلاصًا، وطالما أن المعارضة تنادى ألا يجمع الرئيس بين رئاسة الجمهورية ورئاسة الحزب فسوف نستجيب لمطلبهم للمرة الثانية ونفصل بين الرئاستين وتتولى أنت رئاسة الحزب، وبما أن دواعى الديمقراطية تتيح للرئيس الحاكم أن يعقد انتخابات رئاسية مبكرة، فسوف يطرح الحزب اسمكم للترشيح.. والباقى معروف»

وقبل أن ينهض للانصراف ربت السيد: جمال على ركبتيه وألقى إلى مريضه العفى نظرة كلها إعجاب، فلاحقه السيد النحال بسؤال عاجل:

ـ «هل فهمتنى..؟»

ـ «أجل.. استأذن الآن.. خذ بالك من صحتك، وسوف أحمل للسيد الرئيس كل أفكارك..»

فصاح السيد النحال محذرًا:

ـ «لا.. لا.. أرجوك.. قدمها على أنها أفكارك أنت»

ـ «حاضر.. حاضر.. هل من شيء آخر؟»

ـ «آه.. آه.. هناك شيء مهم.. سنكون بحاجة إلى فلتر من نوع خاص لتمرير أسماء بعينها للترشيح وحجب الأسماء التى قد تثير المتاعب»

تأنى جمال مبارك ولم يواصل الانصراف، وسأله بدهشة:

ـ «أىّ أسماء تقصدها؟»

رد السيد النحال مسرعًا متجاهلًا علامات عدم الارتياح التى بدت على وجه ضيفه:

ـ «أبو غزالة.. الجنزورى.. عمرو موسى.. فأنت لا يمكنك أن تجد سببًا مقنعًا لاهتمام الناس بهم وبأخبارهم رغم خروجهم من السلطة.. كأنهم نجوم تم إطفاؤها بفعل فاعل»

ولما تأكد المريض العجوز أن ما قاله أخيرًا تسبب فى تكشيرة عبرت ملامح ضيفه عنها سارع بالتلطيف:

ـ «ثق أننى أصدقك النصيحة، والاحتياط واجب.. ومن الحكمة أن نسد كل المنافذ المريبة.. وهذا ما فعله السادات بعد رحيل عبد الناصر عندما وجد زكريا محيى الدين وكمال الدين حسين وعبد اللطيف البغدادى يقفزون أمامه ليضعوا أنفسهم فى الصدارة أمام الشعب.. فسارع بإقصائهم..»

وتهدج صوته بأسى:

ـ «الله يرحمه.. كان معلمًا.. الله يرحمه..»

وابتسم جمال مبارك وهو يكمل انصرافه الذى كان قد توقف عنه ـ وزادت ابتسامته عندما رنت فى أذنه كلمة «الله يرحمه»، فقد تعجب أن السيد النحال نطقها كما كان ينطقها الرئيس السادات.. تمامًا.